أبعاد اللسانيات الوظيفية في المدرسة الكوفية-النظرية الوظيفية لسيمون ديك أنموذجا-

أ. سارة لعقد
جامعةأبو القاسم سعد الله-الجزائر 2-

ملخص: إنّ البحث في كل من المدرسة الكوفية والنظرية الوظيفية ليسيمون ديك كشف لنا عن وجود تداخل في بعض القضايا والمسائل التي عالجتها المدرسة الكوفية واعتبرها بعض الدارسين أنّها شذوذ عن المألوف وهو ما اعتدناه في المدرسة البصرية، ولعل بحثنا لهذه القضايا والمسائل والذي بدأ مع النظرية الوظيفية في بداية الأمر كان سببا في انتباهنا إلى ذاك التداخل، ولعل محاولة البحث فيه كان سببا في اللوصول إلى أنّ المدرسة الكوفية كانت أكثر دقة من البصرية وأقرب إلى الاهتمام بوظيفية اللغة، والأقرب إلى النظرية الوظيفية لسيمون ديك على اعتبار أنّها من أهم النظريات الحديثة التي تنطلق في دراستها للغة من الوظيفة الأساسية لها ألا وهي وظيفة التواصل.

The functional linguistics dimensions in the koufiyan school: Acase study of simon Dick theory (the functionalist theory)

Abstract: Research in both the Koufiyan School and the functionalist theory of Simon Dick has revealed that there is an interrelatedness among the topics and issues the Koufiyan school has tackled. Some schools considered the Koufiyan School as an exceptional theory in comparison with what they used to have in Basriyan schools. Perhaps researching about this school and its theories , starting by the functionalist theory, was the prime cause in drawing our attention to the interrelatednessamong the different topics and issues.

Trying to search about this theory also has shown that the Koufiyan School was more precise and accurate than the Basriyan School. It was also closer in taking care ofthe functional (Grammatical) account of language. It was close to the functionalist

theory of Simon Dick because it is a modern theory which starts from the study of language as communication.

Key words: Koufiyan school , the functional grammatical , the functionalist theory of Simon Dick.

تمهيد: إنّ الاهتمام بالنحو باعتباره لبُّ الدراسات اللغوية كان ومازال إلى يومنا هذا يشغل جلّ الباحثين في ميدان اللغويات بشتى مناحيها، لذلك فقد ظهرت في بداية القرن العشرين جملة من المدارس اللسانية لكل وجهتها ومبادئها وأهدافها من دراسة تراكيب لغة معنية؛ ولعل أهم ما ميّز بعض هذه النظريات هو سعيها الطامح إلى إرجاع تلك التراكيب اللغوية إلى أنماط معينة تكون أكبر قابلية لدراسة أكبر عدد ممكن من اللغات، في مقابل هذا ذهبت المدارس الوظيفية إلى أنّ« **الدراسة لا تكون ذات نفع إلا إذا أطّرتها مجموعة من الفرضيات، ولا تكون النظرية اللسانية في المقابل ذات جدوى إلا إذا كشفت عن مبادئ وقواعد ذات انطباقية واسعة النطاق**»(1) ، لذلك فقد ارتبطت النمطية بالنسبة للنظرية الوظيفية بالملكات اللغوية، والشيء الذي يجدر بنا أن نشير إليه هو أنّ هناك بعض المدارس اللغوية العربية كانت سبّاقة إلى مثل هذا بآلاف السنين؛ ولعل أهم فرق بينها وبين هذه النظريات يكمن في أنّ الأولى تحاول دراسة البنى اللغوية بشكل عام دون حصر دراستها في لغة معينة، لكن المدارس العربية كالمدرسة البصرية والكوفية والبغدادية...إلخ؛ اهتمت بالنحو العربي دون غيره، ويمكننا أن نراجع هذا التركيز إلى محاولتهم الحفاظ على لغتهم وقواعدها ولعل اهتمامهم نابع أيضا من أنّ اللغة العربية تختلف عن بقية اللغات الأجنبية فليست كل النظريات اللغوية الأجنبية تصلح لأن تطبق على اللغة العربية لاختلاف خصوصيات هذا النظام-العربي- عن غيره الأجنبي-كاللغة الفرنسية، والانجليزية-، وقد وقع اختيارنا على المدرسة الكوفية لما وجدناه من خلال بحثنا في المسائل التي خالفت فيها البصرة من نقاط اشتراك بينها وبين المدرسة الوظيفية السيموندیكية وهو ما سنحاول الوقوف عليه في هذا المقال.

أولا/ نظرية النحو الوظيفي لسيمون ديك: كان أول ظهور لنظرية النحو الوظيفي في مدينة أمستردام الهولندية على يد الهولندي سيمون ديك في نهاية السبعينيات، إنّها النظرية المندرجة في الأنحاء المؤسسة تداوليا، والتي ركزت اهتمامها حول الكلام ومستعمليه؛ إنّها

النظرية الطامحة إلى «**دراسة خصائص اللسان الطبيعي البنيوية(الصورية) في ارتباطها بوظيفة التواصل**(2) ؛ أي دراسة اللغة في مختلف مظاهرها التواصلية باعتبار التواصل الوظيفة الجوهرية للغات الطبيعية.

لقد سعى عديد الباحثين إلى تطوير هذه النظرية وتوسيع رقعتها الجغرافية فكان لأحمد المتوكل اليد الفاعلة في اخراج هذه النظرية من أمستردام ونقلها إلى المغرب ثم إلى الجزائر، وتونس وبقية البلدان العربية الأخرى؛ ليس لشيء سوى لاقتناع هذا الباحث بمدى أهمية هذه النظرية في خدمة اللغات عامة والعربية خاصة.

1-نماذج النظرية الوظيفية: من خلال دراسة الجهاز الواصف للنظرية الوظيفية لسيمون ديك تبيّن لنا أنّها عرفت خلال مسيرتها العلمية ثلاث نماذج معرفية(3) تميز كل نموذج عن البقية بجملة من الخصائص. ولعل الترسيمة التالية ستبرز نوعا ما النماذج التي عرفتها هذه النظرية خلال مسيرتها:

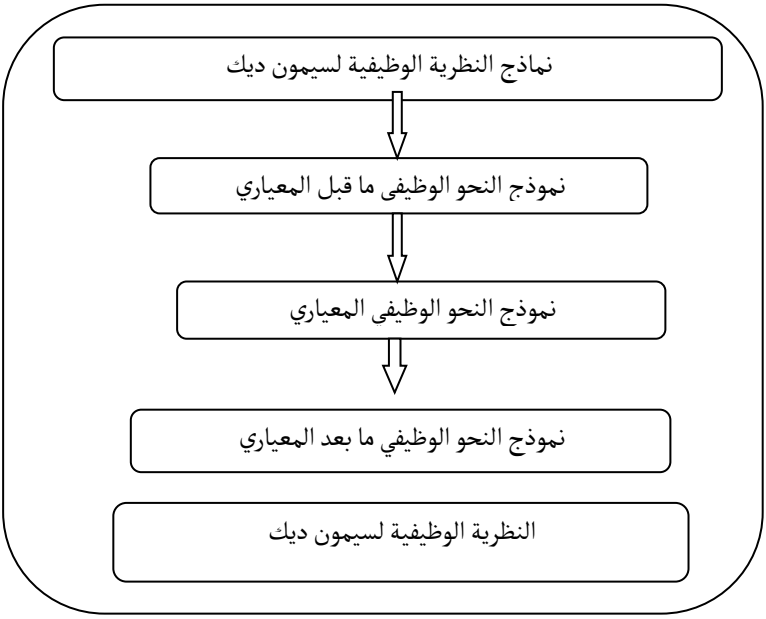

1-1نموذج النحو الوظيفي ما قبل المعياري(1978-1988)(4):يمثّل لهذا النموذج بدلك المقترح الذي قدّمه ديك في نهاية السبعينيات الموسوم بـ: "النحوالوظيفي" إنّه النموذج الذي أطلق عليه البعض "نحو الجملة" في حين يذهب أحمد المتوكل إلى القول بإنّ هذه النظرية منذ البدايات الأولى لها وهي تهتم بالخطابات بالانطلاق من الجمل على اعتبار أنّها أصغر تركيب في الخطاب(5)، وبالنسبة لسيمون ديك فإنّ الجملة «تشتق عبر ثلاث بنى أساسية هي: البنية الحملية، والبنية الوظيفية والبنية المكونية حيث يمثّل في كل بنية لجملة من الخصائص والقواعد»(6)، أما تلك البنى المكونة للجملة هي:

1-1-1 البنية الحملية: وتتكون هذه البنية من بنيتين أساسيتين هما:

أ - **البنية المحمول:**يرد محمول الجملة في البنية التحتية في «**صورة مجردة هي عبارة عن جدر (ثلاثي) مضموما إليه الأوزان باعتباره محمولا أصلا أومحمولا مشتقا ناتجا عن أحد قواعد تكوين المحمولات**»(7)ومن خلال ما جاء على لسان أحمد المتوكل فإنّ المحمول= [س س س(وزن)] وذلك نحو: [شَ رِ بَ (فَعِلَ)]= شَرِبَ حيث يمثل (س)المتغيرات التي يأخذها الجذر اللغوي الواحد.ويمكننا أن نخلص إلى أنّ المحمولات في الجملة نوعان:محمولات أصلية، و المحمولات المشتقة.وقد ميّز بين المحمولات والحدود معتبرا الحدود نوعان:

*__حدود الموضوعات__: المنفذ، المتقبل، المستفيد...

*__حدود اللواحق:__ وهي الزمان، والمكان....

شرب	زيد	الشاي	البارحة	في	البيت
محمول	حدود الموضوعات		حدود اللواحق		

ب - **البنية الدلالية:** تتمثل في بنية دلالة المحمول والوظائف الدلالية للحدود ؛ أي «**الأدوار التي تقوم بها حدود الحمل بالنسبة للواقعة**»(8)؛ بحيث «**تكون هذه الواقعة**

عملا أو حدثا أو وضعا أو حالة»(9) فدلالة المحمول سواء كان فعلا أم اسما أم وصفا أو ظرفا؛ وذلك نحو:

1-أغلقت هند النافذة(عمل)

2-أغلقت الريح الباب(حدث)

1-1-2البنية الوظيفية: وتتكون هذه البنية من بنيتين أساسيتين ومتلازمتين هما البنية التركيبية والبنية التداولية ولا يمكن الحصول على هاتين البنيتين إلا بتطبيق ثقواعد إسناد الوظائف التركيبية ثمّ التداولية.

أ-**البنية التركيبية:** يتم على مستوى هذه البنية اسناد كل من وظيفة الفاعل والمفعول هاتين الوظيفتين اللتان تعرفان في النحو الوظيفي في إطار الوجهة؛ هذه الأخيرة التي تعني أنّ الواقعة الدال عليها المحمول تقدّم من وجهات مختلفة باختلاف الحد المنطلق منه؛ أما الوجهة الأولى فتكون من منظور الحد الأول أو المنظور الحد الرئيس(عمرو) وبهذا تعرّف الوظيفة الفاعل، أما الوجهة الثانية فتكون من منظور الحد الثاني أو منظور الحد الثانوي(هند) وبهذا وظيفة المفعول وذلك نحو:

(1):استقبل ف عمرو(س^1 : عمرو(س^1))منف فا هندا (س^2 : هندا(س^2))متق مف

(2):اسْتُقْبِلَتْ ف (س^1: هند(س^1))

والجدير بالذكر أنّ النحو الوظيفي استغى بالوظيفة الفاعل المفعول عن بقية الوظائف الأخرى و السبب في ذلك أنّ «**ثمة فرقا بين البنية الدلالية والتركيبية بحيث لا ضرورة لأن تتضمن البنية الثانية جميع عناصر البنية الأولى**»(10).

ب-البنية التداولية: وتسند على مستوى هذه البنية الوظائف التداولية إلى مكونات الجملة، باعتبار الحمولة الإخبارية التي تحملها هذه المكونات في مقام معين وبالنظر إلى كل من المعطيات النفسية، والاجتماعية، والتي أجملها النحو الوظيفي في أربعة وظائف البؤرة، والمحور، والمبتدأ، والذيل، وأضاف أحمد المتوكل وظيفة خامسة وجد لها حضورا في النحو العربي ألا وهي وظيفة المنادى وقد «**أفردت دراسة قائمة الذات (المتوكل 1985م) للوظائف التداولية في اللغة العربية حيث تمّ التمييز بين ما هو داخلي من هذه الوظائف،**

وما هو خارجي»(11) ومعنى هذا أنّ الوظائف التداولية عامة إما وظائف داخلية، أو وظائف خارجية.

1-1-3البنية المكونية: إنّها البنية التي تسند على مستواها مجموعة من القواعد ضمن ما يعرف بقواعد التعبير نحو: قواعد إسناد الحالات الإعرابية، وقواعد إدماج مخصصات الحدود، والقواعد المتعلقة بصيغة المحمول، وقواعد الموقعة؛ هذه القواعد هي القواعد التي تتولى ترتيب المكونات كل في موقعه، أما قواعد إسناد النبر والتنغيم فإنّ هذين الأخيرين هما ما يعرف في النحو الوظيفي بالبنية التطريزية، وكلاهما محكوم تداوليا.

1-2نموذج النحو الوظيفي المعياري(1989-1997):لقد عمل سيمون ديك وغيره من المهتمين بنظريته إلى تطوير النحو الوظيفي وتمكنوا بفضل جملة من الدراسات المعجمية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية؛ مركزين اهتمامهم على الجملة المركبة والمعقدة ن إعادة صياغة النحو الوظيفي وإخراجه في قالب جديد وسم:"نظرية النحو الوظيفي"، هذا الأخير الذي يختلف عن الأول من جهتين: جهة توسيع مكونات القدرة التواصلية، وجهة تقليص مكونات القالب النحوي الذي أدمجت فيه البنية الحملية والوظيفية في بنية تحتية واحدة(12)، ولعل الغرض الأساس من هذه التعديلات هو أن تتناسب مع إنتاج النصوص متجاوزين بذلك الجملة.

1-3نموذج النحو الوظيفي ما بعد المعياري(1998...): إنّه النموذج الذي عدّه عديد الباحثين في طور النشأة والتطور، إذ تجاوز الجملة إلى الخطاب فقد ركز الوظيفيون في هذه الفترة على هذا الأخير في إطار ما يعرف **"نحو الخطاب الوظيفي"** والذي يتكون جهازه الواصف من المكون المفهومي، والمكون النحوي، والمكون الإصاتي ، والمكون السياقي(13).

2-المبادئ الأساسية للنظرية الوظيفية: لقد بنيت نظرية النحو الوظيفي في أساسها على مبدأين منهجيين أساسيين أوجزهما المتوكل في تأدية اللغة لوظيفية التواصل، وارتباط بنية اللغة بوظيفتها هذه ارتباط تبعية(14)؛ وسنتطرق لها بتفصيل أكثر فيما يلي:

2-1وظيفة اللغات الأساسية هي التواصل: لقد اتجهت الدراسات اللغوية الحديثة توجهات عديدة في خضم دراسة اللغة ومن منطلق اللغة كل ذهب مذهبا مخالفا لغيره في بعض الأحيان ففي الوقت الذي ذهب فيه جاكبسون إلى أنّ وظائف اللغة ستة وظائف أساسية، وذهب هاليداي إلى أنّها ثلاثة وظائف، وفي الوقت الذي ذهب ديكرو إلى أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي الوظيفة الحجاجية، ذهب سيمون ديك إلى أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي الوظيفة التواصلية، وهو ما ذهب إليه أحمد المتوكل حيث عدّ التواصل هو الوظيفة الأساسية للغة وباقي الوظائف أنماطا للتواصل اللغوي لا غير.

والشيء الذي يجدر بنا أن نشير إليه في خضم كل هذا هو أنّ اعتبار التواصل هو الوظيفة الأساسية للغة ليس بالجديد على الدراسات اللغوية العربية فقد أشار إلى ذلك جلّ اللغويون العرب سابقا وأكبر مثال على ذلك ما ذهب إليه ابن جني عند حديثه عن اللغة قائلا: «**فأمّا حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم**»(15) ، والذي يمكن أن نخلص إليه أنّ العرب قد حسموا أمرهم في كون الوظيفة الأساسية للغة هي وظيفة التواصل بينما كان الغرب يذهبون إلى وسيلة التواصل ليست بالضرورة الوظيفة الأساسية للغة فقد يمكن أن تكون مجرّد وسيلة للتعبير عن الفكر وهو الطرح الذي تبناه الفلاسفة ودافع عنه جاكبسون(16).

2-2موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم-المخاطب: إنّ المقصود بالقدرة في مقابل الإنجاز؛ هي تلك المعارف التي يختزنها المتكلم عن طريق الاكتساب والتي تمكنه من إنتاج وتأويل عدد غير متناهي من الجمل والتراكيب اللغوية، وعلى هذا الأساس فإنّ النحو الوظيفي يسعى إلى إلى الفصل بين قدرة المتكلم المجرّدة وإنجاز هذه القدرة الفعلي، فيتخذ القدرة موضوعا للدرس اللغوي لا الإنجاز ؛ ومن هذا المنطلق فإنّ النحو الوظيفي يسعى إلى إعادة تعريف الثنائية (قدرة/إنجاز) فقدرة المتكلم قدرة تواصلية وهذه القدرة في حد ذاتها تتسم بسمتين بارزتين:

2-3 النحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظورا إليهما من وجهة نظر تداولية.

لقد ضمّت مقترحات النحو الوظيفي بنية للنحو تتشكل من ثلاث مستويات مكملة لبعضها ألا وهي:

مستوى لتمثيل الوظائف الدلالية: كوظيفة المنفذ، ووظيفة المتقبل...

مستوى لتمثيل الوظائف التركيبية: كوظيفة الفاعل، ووظيفة المفعول.

مستوى لتمثيل الوظائف التداولية: البؤرة، المحور...

2-4 يسعى النحو الوظيفي إلى تحقيق الكفاية التفسيرية: يسعى النحو الوظيفي إلى تحقيق الكفاية التفسيرية وبالنسبة إليه فإنّها تتحقق في إطار ثلاثة أنواع من الكفايات هي: الكفاية التداولية، والكفاية النفسية، والكفاية النمطية.

ثانيا/المدرسة الكوفية: إنّ النحو كما جاء في كتب نحاة العربية هو «**انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره؛ كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة؛ فينطق بها وإن لم يكن منهم**»(17) ، ومعنى هذا أن النحو هو أن نسلك بكلامنا مسالك العرب في كلامهم؛ ويبرز لنا في تعريف ابن جني للنحو الغاية منه ألا وهي صيانة اللسان العربي من اللحن بحفظه، ولعل الغاية الأخرى التي تبرز من خلال قوله هي الإشارة إلى أنّ الاهتمام بعلم النحو تنبع من محاولة تقريب اللغة العربية وتسهيلها على متعلميها خصوصا معتنقي الإسلام، لأن نزول القرآن الكريم كان إعلانا صريحا على أنّها لغة الدين الجديد فهي «**لسان الوحي المبين...قال تعالى: { نزل به الروح الأمين ﴿193﴾على قلبك لتكون من المنذرين﴿194﴾ بلسان عربي مبين﴿195﴾} 195الشعراء**»(18) ، **ويذهب آخرون إلى التدقيق أكثر بقولهم «علم يعرف به أحوال أواخر الكلم اعرابا وبناء**»(19).

وتعود بدايات الاهتمام بعلم النحو العربي إلى ما روي عن أبي الأسود الدوؤلي إثر اللحن الذي وقعت فيه ابنته وتعددت الروايات في ذلك؛ أو الأعرابي الذي لحن أثناء قراءته للقرآن الكريم، ولسنا في صدد الحديث عن هذه الرّوايات؛ إنّما الحديث عن تلك المدارس النحوية التي انتهجت لنفسها نهجا معينا في دراسة البنى والتراكيب النحوية وفي هذا الصدد مشهود ليس بجديد السبق العلمي للمدرسة البصرية مع أستاذ النحو سيبويه بكتابه " الكتاب" هذا الأخير الذي عدّه جلّ الباحثين دستور النحو؛ تأتي المدرسة الكوفية تالية لها وقد ذهبوا في هذا مذهبين الأول يقول بنشاط المدرستين ففي «**نفس الفترة التي كان**

الخليل وسيبويه ينشران علمهما فيها "بالبصرة" وجد عالمان بالكوفة اشتغلا بالنحو وإن لم يبلغا في الشهرة مبلغ الخليل وسيبويه»(20) ؛ ومعنى هذا أن المدرستين نشأتا في الوقت ذاته في قطرين مختلفين البصرة والكوفة. أما المذهب الثاني فيرى أنّه «**نشأ بعد نحو مئة عام؛ من تلاميذهم من ذهب إلى الكوفة فعلّم بها، فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى المدرسة الكوفية**»(21) ، فالنحو عرف في «**البصرة قبل الكوفة، وإذا قيل النحو فلابد أن يكون مما اشتمل عليه علم العربية عامة، ثم جاء بعدهم الكوفيون ليشاركوا في هذا المسعى فكان منهم نحاة وعلماء لغة وأصحاب روايات في القراءات وسائر فنون العربية وما اتصل بها من أخبار وعلم بالأيام والوقائع»(22)** وبحكم أنّ أغلب نحاة الكوفة هم في الأصل تلاميذ للنحاة البصريين وهذه العلة التي اتخذ منها أغلب الباحثين في المدارس النحوية العربية الباعث للقول إنّ الكوفيين لم يزيدوا شيئا على ما قال به البصريون، وأنّ تلك الاختلافات مجرد تغيير في بعض الأنساق النحوية والعلل التي ناقضت من خلالها ما جاء به نحاة البصرة؛ لكن ما يمكننا القول به هو إنّهم تشبعوا بالفكر البصري قبل إعادة النظر في جلّ تلك المسائل النحوية وسنفصل الحديث في هذا لاحقا؛ ولعل أهم من أرسى مدرسة الكوفة هو الرؤاسي فالنحو« **الكوفي بدأ بظهور أبي جعفر الرؤاسي، وقد تلمذ له الكسائي والفراء**»(23) ، حيث «**يعد الفراء أبرع الكوفيين في النحو واللغة، وكان إمامهم بعد الكيسائي، وقد تبوّأ هذه المنزلة الرفيعة بفضل ثقافته الواسعة**»(24) ، والذي عدّ فيما بعد مؤسس المدرسة الكوفية والتي اتضحت معالمها ومنهجها ومصطلحاتها في كتابه معاني القرآن؛ هذا الأخير الذي عدّه جل الباحثين العرب قديما وحديثا من أعظم المؤلفات؛ فقد كانت له «**أهمية كبيرة في تاريخ النحو، والكوفي عنه بوجه خاص فقد كان هذا من أوائل الكتب التي تعنى بتوضيح المشكلات الواردة في كتاب الله العزيز وقراءاته المتواترة وغيرها، وتبين كثيرا من الأوجه التي تجوز في كل آية من التي يرى أنّ هناك حاجة إلى بيانها معتمدا في ذلك على ما رود في كلام العرب من الظواهر الإفرادية والتركيبية، فكأنه كان شرحا لغويّا نحويّا صرفيا إلى جانب عنايته بما يرد في القراءات من موضوعات صوتية كالمد والهمز...**»(25) ، إنّ جل الدارسين يشيدون بهذا المؤلف العظيم الذي خدم العربية كلها والنحو الكوفي بخاصة.

لقد أثارت المدرسة الكوفية جدلا كبيرا بين قائل بوجودها بحجة أنّ «**نحو الكوفيين يشكل مذهبا مستقلا أو كما نقول بلغة العصر مدرسة مستقلة سواء منهم أصحاب كتب**

والطبقات والتراجم مثل ابن النديم في كتابه الفهرست ...أو أصحاب كتب المباحث النحوية»26، وهناك من ذهب إلى أنّه لا توجد أي مدرسة قائمة الذات عدا المدرسية البصرية وما جاء بعدها كل أخذ منها مع اضافات أخرى لا يمكن أن تعدّ مدارس مستقلة، إنّ المتمعن في جلّ النظريات اللسانية الحديثة إنّما تنبني إنطلاقا مما قدمته نظرية أو مدارس غيرها فلم تنشأ مدرسة أو نظرية من العدم إطلاقا وكان لابدّ سواء على المدرسة الكوفية وغيرها أن تأخذ من البصرية كون هذه الأخيرة أولى المدارس النحوية في النحو العربي فلا عجب أن تنهل منها المدارس التي تلتها معيدة النظر فيما تراه هذه المدرسة؛ دون أن ننظر إلى هذه الدراسات موضوعية دون القول بهذه أو تلك.

ثالثا/ أبعاد النظرية الوظيفية لسيمون ديك في المدرسة الكوفية: إنّ بحثنا في كلا المدرستين جعلنا نستشف أمورا كثيرة غفل عنها الباحثون، فقد تعودنا بحكم أنّنا نتبنى ما قالت به المدرسة البصرية أن نصدر أحكاما تعسفية لا علاقة لها بالموضوعية، على المدرسة الكوفية وما قالت به في مختلف المسائل النحوية المختلف فيها مع المدرسة البصرية، وبالنسبة لنا فإنّ التقارب الزمني الذي كان بين المدرستين ربما كان السبب في ذاك الجدل الكبير، ذلك لأنّ أغلب الناس انكبوا على النحو الذي ظهر في البصرة وأخذ مكانته بينهم، فالفكر البشري بطبعه لا يتقبل شيئا يتناقض مع ما هو يقيني بالنسبة له، ولو كان النحو البصري على درجة كبيرة من اليقينية لما انتقد سيبويه أستاذه في كثير من المسائل، ولما قال ابن هشام الأنصاري بما قاله في حديثه عن الكلام وتفريقه بين الكلام والجملة...لذلك فإنّ الحكم على المسائل لا يجب أن يكون هكذا بطريقة تعسفية لا تأخذ بعين الاعتبار المعطيات والتحليل المنطقي لها. لذلك فإنّ البحث في كل من المدرسة الكوفية والنظرية الوظيفية لسيمون ديك كشف لنا عن بعض الأبعاد التي تتحقق في المدرسة الكوفية والتي قالت بها الدراسات الوظيفية حديثا لذلك أردنا الخوض في بعض منها ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ هذا غيض من فيض المدرسة الكوفية.

1-البعد المنهجي: إنّ الحديث عن المنهج الوصفي الذي اهتم بدراسته عديد الباحثين المعاصرين الذين يعتبرون أنّ هذا المنهج لم يظهر إلا في القرن العشرين مع فرديناند دي سوسير وانبهروا «**في دراسة للغة فضّلوا منهج الكوفيين ورأوه أقرب إلى تصوير واقع اللغة العربية في الاستعمال من منهج البصريين الذين أهملوا كثيرا منها وأبقوه في دائرة**

السماع، فلا يقاس عليه لقلته أو ندرته أو عدم الثقة في قائله»(27) ؛ وربما لو اهتموا بالعربية بالشكل الذي اهتمّ به الكوفيون من منطلق أنّهم سمعوا العربية وأخذوا كل ما سمعوه عن العرب في الحضر والبوادي لكان ذلك أنفع لنا، لأن البحث يؤكد أنّ تلك القبائل التي تعتد بها البصرة في قياسها سُمِعت فيها لهجات عديدة، فما تفسير هذا إذا كانت لم تخالط العجم؟ وهل يصدق أنّها حقا لم تخالط العجم؟ فكونها بعيدة عن بلدان العجم ليس بالضرورة ينفي احتكاك لغتها بالعجم على اعتبار أنّ هناك منهم من ينتقل في تجارة أو حرب أو ما شابه ذلك. وهل ما عدّته البصرة شاذا لا يفيد العربية؟ أما كان أكثر نفعا لنا ونحن في أمس الحاجة إلى أقيّسة جديدة تتماشى ومصطلحات هذا العصر؟ فربما كانت هذه الأقيّسة كفيلة بوضع تلك المصطلحات المقابلة للأجنبية في مجال المصطلح مثلا.

يدّعي البعض أنّ التوسع في السماع تشويه للعربية، متناسين أنّ مجمل تلك اللهجات في الأصل عربية فإذا بحثنا وأمعنا النظر في دراسات حديثة فإنّنا نلاحظ دون شك أنّها قامت على أساس دراسة لهجاتها في حين أنّ العرب حاولوا بأي طريقة وبالاستعانة بحجج واهية إهمال لهجاتها فتلك اللهجات هي الاستعمال الحقيقي للغة وربما هذا ما يؤكده عبد الرحمان الحاج صالح فاللغة بالنسبة له «**وضع واستعمال**»**(28)** ، واللهجة هي وجه بل أصدق وجه من وجوه الاستعمال الحقيقي للغة.

2-البعد الوظيفي: لقد أخذ علماء الكوفة النحو عن علماء البصرة هذا الشيء لا يختلف فيه اثنان، لكن هذا لا يعني أبدا أنّ النحو الكوفي لا وجود له أو كما أشرنا سابقا أن نحكم عليه مباشرة دون البحث فيه وتخطئته بحكم ما جاءت به المدرسة البصرية ولعل البحث في هذا سيقودنا إلى الحديث عن البعد الوظيفي للنظرية الوظيفية فيما ذهبت إليه المدرسة الكوفية. ولعل أهم شيء يمكننا الحديث عنه ثنائية (المبتدأ /الخبر) ففي الوقت الذي ذهبت فيه المدرسة البصرية إلى اعتبار الجملة (زيد قام) كما يلي:

زيد + قام

⇩ ⇩

مسند إليه(مبتدأ) + مسند(خبر)

الشكل (1)

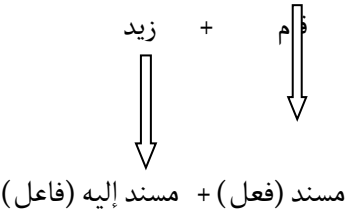

الشكل (2)

ومن منطلق أنّ المكون (زيد) قد أسندت إليه الوظيفة المبتدأ فإنّ النظرية البصرية قد عدّته من قبيل الوظائف الواقعة خارج إطار الحمل، غير آخذة بعين الاعتبار السياق أو المقام الذي وردت فيه هذه الجملة ومن هذا المنظور فالمدرسة البصرية أخذت بظاهر الجملة؛ أي بالجانب الشكلي وليس ببنيتها العميقة وكأنّ فعل القيام الذي لم يسند إلى المكون(زيد) والملاحظ تناقض كبير فما ذام المكون (زيد) هو الذي تسند إليه فعل القيام في الحالتين لماذا تعرب المسند إليه إعرابين مختلفين، لقد سلكت هذا المنحى لأنّ المسند إليه في الجملة الأولى ابتدأ به الكلام فهو مبتدأ، لكن السياق في هذه الحالة ربما له القدرة على إلغاء الشكل والاهتمام بالبنية العميقة للجملة.

في حين ذهبت المدرسة الكوفية إلى اعتبار الجملة ذاتها كما يلي:

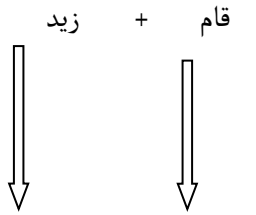

الشكل (4)

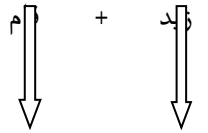

مسند إليه(فاعل) + مسند (فعل)

الشكل(5)

إنّ إعراب المكون (زيد) فاعلا عند المدرسة الكوفية يجعلنا نتوقف عند هذا الإعراب في محاولة لمعرفة السبب الذي جعل بها تعربه هذا الإعراب وتخالف في ذلك المدرسة البصرية، فالملاحظ في هذه الجملة أنّه وإن تقدم المكون (زيد) على الحمل (قام) إلا أنّ معنى الجملة لا يختلف سواء تقدم المكون(زيد) أم تأخر؛ ففعل القيام في الحالتين سيكون مسند إلى المكون (زيد)، وربما اهتمام المدرسة الكوفية بالجانب العميق للبنية هو ما جعلها تعرب المكون (زيد) فاعلا في كلا الجملتين سواء تقدم فيها أم تأخر. وإلى هذا تذهب المدرسة الوظيفية السيمون ديكية على الخصوص فهي تسند الوظيفة الفاعل من الوظائف التركيبية إلى المكون (زيد) وأسندت له الوظيفة المحور من الوظائف التداولية ما يجعل المكون(زيد) لا يخرج عن إطار الحمل، في الحالتين سواء الأولى أم الثانية. ما يدفعنا إلى القول أنّ الكوفية قد أصابت في عديد المسائل التي عيبت فيها وخطئت.

الخاتمة: إنّ إعادة قراءة وبحث التراث العربي القديم من الأمور الضرورية التي يجب على الباحثين الاهتمام بها من أجل تأصيل الدراسات اللسانية الحديثة والتي لا تخرج في مجملها إن أمكننا القول بذلك عن ما هو قائم بذاته في تراثنا العربي بين هذا الكتاب وذاك.

التقاء النظرية الوظيفة لسيمون ديك مع المدرسة الكوفية ولعل أهم الأمور التي تشتركان فيها تطبيق المنهج الوصفي في كليهما، واهتمامهما بالوظيفة بدلا من الشكل وبنية الجمل.

الهوامش:

1- أحمد المتوكل: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2006م، ص68.

2- أحمد المتوكل: من البنية الحملية إلى البنية المكونية-الوظيفة المحول في اللغة العربية-، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 1987م، ص5.

3- أحمد المتوكل: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، ص71-73.

4- ينظر: محمد الحسين مليطان:نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، منشورات الاختلاف، الرباط، المغرب، ط1، 2014م، ص20-21.

5- يوسف تغزاوي: الوظائف التداولية واستراتيجية التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، مطبعة حلاوة، الأردن، ط1، 2014، ص4.

6- أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بنية المكونات أو التمثيل الصرفي التركيبي، دار الأمان، الرباط، الرباط، المغرب، 1996م، ص15.

7- أحمد المتوكل: من البنية الحملية إلى البنية المكونية، ص58.

8- أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص25.

9- يوسف تغزاوي: الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، ص102.

10- أحمد المتوكل: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، ص93.

11- ينظر: يوسف تغزاوي: الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، ص5.

12- ينظر: أحمد المتوكل: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، ص84.

13- ينظر: أحمد المتوكل: اللسانيات المقارنة دراسة في التنميط والتنظير، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م، ص25.

14- ابن جني: الخصائص، تح: علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، دت، 33/1.

15- ينظر: أحمد المتوكل: التركيبات الوظيفية قضايا ومقاربات، مطبعة الكرامة، الرباط، المغرب، ط1، 2005م، ص24.

16- ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 34/1.

17- هادي أحمد فرحان الشجيري: الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية، دار البشائر الاسلامية، ط1، 2001م، ص31.

18- ابراهيم مصطفى: احياء النحو، ط2، 1992م، القاهرة، مصر، ص1.

19- أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتاب، القاهرة، مصر، ط6، 1988م، ص126.
20- سعيد الأفغاني: من تاريخ النحو، دار الفكر، ص32.
21- ابراهيم السامرائي: المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1987م، ص31.
22- المرجع نفسه: ص32.
23- سعدون أحمد علي: أثر معني القرآن للفراء ومعاني القرآن وإعرابه للزّجّاج في الكشاف للزمخشري، أطروحة دكتوراه، 2002م، ص7.
24- خديجة الحديثي: المدارس النحوية، دار الأمل_أربد، الأردن، ط3، 2001م، ص161_160.
25- شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط7، ص155.
26- علي محمد علي عبد الله صالح: أراء الفراء النحوية في خزانة الأدب عرض ودراسة وتقويم، رسالة ماجيستير، ص8.
27- عبد الرحمان الحاج صالح: مساهمة المجامع اللغوية العربية في ترقية اللغة العربية وتجديد محتواها وتوسيع آفاقها، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثامن، السنة الثالثة، ديسمبر، 2008م، الجزائر، ص19.

المصادر والمراجع:

1-أحمد المتوكل: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2006م.
- من البنية الحملية إلى البنية المكونية-الوظيفة المحول في اللغة العربية-، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 1987م.
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية بنية المكونات أو التمثيل الصرفي التركيبي، دار الأمان، الرباط، الرباط، المغرب، 1996م.
- اللسانيات المقارنة دراسة في التنميط والتنظير، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م.
- التركيبات الوظيفية قضايا ومقاربات، مطبعة الكرامة، الرباط، المغرب، ط1، 2005م.

2- أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتاب، القاهرة، مصر، ط6، 1988م.
3- ابراهيم السامرائي: المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1987م.
4- ابراهيم مصطفى: احياء النحو، القاهرة، مصر، ط2، 1992م.
5- خديجة الحديثي: المدارس النحوية، دار الأمل_أربد، الأردن، ط3، 2001م.
6- عبد الرحمان الحاج صالح: مساهمة المجامع اللغوية العربية في ترقية اللغة العربية وتجديد محتواها وتوسيع آفاقها، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثامن، السنة الثالثة، ديسمبر، 2008م، الجزائر.
7- سعدون أحمد علي: أثر معني القرآن للفراء ومعاني القرآن وإعرابه للزّجّاج في الكشاف للزمخشري، أطروحة دكتوراه، 2002م.
8- سعيد الأفغاني: من تاريخ النحو، دار الفكر.

9- شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط7.
10- علي محمد علي عبد الله صالح: أراء الفراء النحوية في خزانة الأدب عرض ودراسة وتقويم، رسالة ماجيستير.
11- محمد الحسين مليطان: نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، منشورات الاختلاف، الرباط، المغرب، ط1، 2014م.
12- هادي أحمد فرحان الشجيري: الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية، دار البشائر الاسلامية، ط1، 2001م.
13- يوسف تغزاوي: الوظائف التداولية واستراتيجية التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي، مطبعة حلاوة، الأردن، ط1، 2014، ص4.